﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: 126 - 127]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

عمي عن الآيات في الدّنيا، فحُشِرَ في الآخرة أعمى

لمّا ذكرَتِ الآيةُ السّابقةُ سؤالَ العبدِ لربِّه عن السّبب الّذي استَحقّ به أن يُحشرَ أعمى في قوله: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: 125]؛ لأنّه جهِلَهُ وظنّ أنّه لا ذنبَ له، جاءَت هذه الآيةُ جوابًا عن سؤاله، فقال له ربُّهُ: (مِثلَ ذلك فعلتَ لمّا أتتْكَ آياتُنا الواضحةُ، فلم تنظُرْ إليها نظرَ مُعتبِرٍ، وعميْتَ عنها، فكذلك اليوم تُنْسى)[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَسِيتَهَا﴾: النّسيان: تركُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ، إمّا لضَعفِ قلبِه، وإمّا عن غَفلةٍ، وإمّا عن قصدٍ حتّى يَنحَذِفَ عنِ القلب ذكرُهُ، وهو ضدُّ التَّذكُّر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:115]، وأصل النّسيان هو إغفالُ الشّيء وإهمالُه، قال تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: 14] ومِن إهمال الشّيء ينتج تركه، فالتّركُ معنىً مِن معاني النّسيان، وكلُّ نسيانٍ مِنَ الإنسان ذمَّهُ اللّهُ تعالى به فهو ما كان أصلُه عن تعمُّدٍ، وما كان بمعنى التّركِ على طريقِ الإهانة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السّجدة: 14] وإذا نُسِب النّسيانُ إلى الله تعالى فهو تَركُهُ إيّاهُم استِهانَةً بهم ومُجازاةً لِما تركوه، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 363، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 586، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 395.

هَٰذَا﴾ [الأعراف: 51][1]، ومعنى "نسيتَ الآياتِ" هنا أنّك أهمَلتَها وأعرَضتَ عنها وعَميتَ عنها، ونسيتَ ذكرَها[2].

2) ﴿أَسۡرَفَ﴾: السَّرَفُ هو تجاوزُ الحَدِّ في كلِّ فِعلٍ يفعلُه الإنسانُ، وإنْ كان ذلك في الإنفاقِ أشهَرَ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ [الفرقان: 67][3] وهو تجاوزٌ نَحوَ السَّيِّء، لذلك يُقالُ: "رَجلٌ سَرِفُ الفؤاد وسَرِفُ العقل: فاسِدُه"[4]، فالسَّرفُ ضدُّ القَصْدِ[5]، وينتجُ عنِ السَّرفِ إغفالُ الشّيءِ وإخطاؤه[6]، ومعنى (أسرف) في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ أنّه جاوزَ الحدَّ مُتابعةً لهواه، فأشركَ باللّه، وانهَمَكَ في الشّهوات، وأعرضَ عنِ الآيات[7].

3) ﴿أَشَدُّ﴾: الشِّدّةُ: قُوّةٌ في الشّيء[8]، وهي ضدُّ اللّين[9]، والشَّدُّ: العَقدُ القويُّ والتّوثيقُ، وتُستعمَلُ الشّدّةُ في العَقدِ وفي البَدَن وفي قُوى النّفسِ وفي العذاب، قال تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ [فاطر: 44]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النّجم: 5]؛ يعني جبريلَ ﷺ، قال تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التّحريم: 6]، وقال تعالى: ﴿فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ [ق: 26][10]، ومعنى "أشدّ" في الآية ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ أي: أقوى قسوةً وألمًا ومَشقّةً وفظاعةً مِن كلِّ الشّدائدِ السّابقةِ وأعظمُ[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنَت هذه الآيةُ جوابَ سؤالِ المُعرِضِ عنِ الحقِّ، يسألُ عن سببِ حَشرِه أعمى، مع أنّه كان في الدّنيا بصيرًا، فيأتيه الجوابُ الّذي يُخرِسُهُ: الأمرُ كذلك، فإنّك أتَتْكَ آياتُنا الدّالّةُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي)، والرّازيّ، مختار الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (نسى)، يقول الطّيبيّ: "النّسيان قد يُستعمل في التّرك مجازًا، لأنّ التّرك سبب النّسيان"، يُنظر: فتوح الغيب: 9/ 451.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 97.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سرف).

(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سرف).

(5) الجوهريّ، الصّحاح: (سرف).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سرف).

(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 397، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 395، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.

(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شد).

(9) ابن سيده، المحكم: (شدد).

(10) الرّاغب، المفردات: (شد)، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (شدد).

(11) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 112، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 324، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 463.

على وحدانيَّتِنا وقُدرتِنا على لسان رسلنا فتَركتَها وأعرَضتَ عنها، ولم تَرَ فيها نورًا يُبصِّرُك بالخير، ولا رُشدًا يُبعِدُك عنِ الضّلال، فأعرضتَ عنها، وكما أعرضتَ عنها في الدّنيا، نترُكك اليومَ تُعَذَّبُ في النّار جزاءً وفاقًا.

العذابُ الأليمُ لِكلّ مُسرِفٍ مُعرِضٍ عنِ الحقِّ

ومثلُ ذلك الجزاءِ الأليمِ الّذي أنزلناه بهؤلاء المُعرِضين عن ذِكرنا نجازي كلَّ مَن أسرَف في ارتكاب السّيّئاتِ فلم يُؤمِنْ بآيات ربِّه بل أعرَضَ عنها، ولعذابُ الآخرة أقسى من عذاب الدّنيا وأدْوَم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ عن سابقتها؛ لأنّها جاءت جوابًا لسؤالِ المحشورِ أعمى[2]: ما فعلتُ يا ربِّ؟ فقيل: أتَتكَ آياتُنا"[3]، فهو جوابٌ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ[4]، "لذلك فُصِلت ولم تُعطَف"، على طريقة القرآن في إيراده للمحاورات[5].

تَرَقُّبُ الكافرِ جوابَ سؤالِه

بلاغةُ التّشبيه في قوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ للدّلالة على التّشبيه[6]، دون (مثل) لوجود فرْقٍ بينهما؛ فالمثليّةُ تعني الاتّفاقَ في الذّات والصّفة، وهذا غيرُ مُرادٍ هنا؛ لأنّ المقصودَ أنّه فعَل مثلَ ذلك لا عينَه؛ لذا جاء التّشبيهُ بالكاف على سَنَنٍ بليغٍ، حيثُ شُبِّهَ مَوقفٌ بمَوقفٍ، وحالٌ بحالٍ؛ فشُبِّه مَوقفُ المُعرِضِ حين جاءَتهُ الآياتُ في الدّنيا فأهملَها وتَرَكَها، بمَوقفِ المُعرِضِ نفسه جاء يومَ القيامةِ، فأُهمِلَ وتُرِكَ في الشّدائد.

العمى عن آيات الله في الدّنيا سببٌ للعمى في الآخرة

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 166.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 395.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 586، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 363.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 332.
(6) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 85.

فالمَوقِفُ هو الإعراضُ، وهو نفسُهُ هنا وهناك، والحال هي نفسُها أيضًا مَجيءُ الآيات للتّذكير، ومجيءُ المُعرِض للجزاء[1]، والمشبَّهُ في التّشبيه الأوّل فِعْلُهم؛ وهو عَماهم عنِ الآيات، والمشبّهُ به هو حَشرُ الكافر أعمى[2]، وهو تشبيهٌ دقيقٌ يتضمّن التّعليلَ، وهو ما يُورِثُ الاعترافَ والتَّحسُّر.

دلالةُ التّعبير باسم الإشارة:

تهويـنُ موقف المُسيّ وإبعادُه

جاء التّشبيهُ في ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ مُقترِنًا باسم الإشارة البعيد (ذلك)، مع أنّ المُشارَ إليه هو حشرُ المُعرِض أعمى، وهو ماثِلٌ حاضرٌ، والأصل أن تكون الإشارةُ إليه بالقريب (هذا)، ولكنّ الآيةَ عدَلت عنِ الإشارة للقريب إلى إبعاده تهوينًا للمَشهَد وتصويرًا له بمآلٍ سيّءٍ قبيحٍ، لا يَحسنُ أن يكون قريبًا.

سرُّ المُخاطَبة بالإتيان:

يُسْرُ التّكاليف سبيلُ الإلزام

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبيرَ بالإتيان في قوله: ﴿أَتَتْكَ﴾ دون (جاءتك)؛ لأنّ الإتيانَ يحملُ معنى السّهولة واليُسر؛ فكأنّ الآياتِ بما فيها من وضوحٍ وظهورٍ تُساعدُك أيُّها المُعرِضُ على العمل بها، ولا تُوجِبُ عليك مَشقّةً.

وفي هذا إشارةٌ إلى إقامة الحُجّة على المُعرِض، ويُؤكِّدُ ذلك وجودُ كاف الخطاب في الفعل ﴿أَتَتْكَ﴾.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿أَتَتْكَ﴾:

جاء التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿أَتَتْكَ﴾ للدّلالة على تحقُّقِ البلاغ، وأنّه لا عُذرَ للمُعرِضِ بعدَ بلوغِ الآياتِ إليه على ألسنة رسل الله.

نكتةُ إسنادِ الإتيانِ إلى الآيات على سبيل الاستعارة:

تصويرُ مشهدِ مجيءِ الآياتِ والإعراضِ عنها

أُسنِد الإتيانُ في الآية ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ إلى الآيات، وهو

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.

تعبيرٌ بليغٌ يصوِّرُ مَشهَدًا أمام المحشور أعمى: إنسانٌ قائمٌ تتحرّكُ إليه الآياتُ إلى أنْ تصل إليه، فبدلَ أن يُقبِلَ عليها أعرض، وبدلَ أن يَعيَها أهملَ ونَسيَ!

ويكفي في الدّلالة على المعنى مُجرَّدًا عن هذا التّصوير أن تقول الآيةُ: كذلك أعْرَضْتَ عنِ الآيات[1].

فثمرة هذا التّصوير إذًا بيانُ مَوقِف المُعرِض، وأنّه توفّرَت لديه فُرَصُ الإيمان والهداية، فاختارَ غيرَها.

دلالة التّعبير بالآيات مجموعةً ﴿ءَايَٰتُنَا﴾:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ الآيات مجموعةً دون غيرِها كالمُعجِزات؛ لأنّها أعمّ، فتُطلَقُ على آيات الكتاب وعلى أدلّةِ الوحدانيّةِ وعلاماتِ صدقِ النّبوّةِ، وهذا هو المُرادُ في مَقام الدّعوة.

دلالة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

عظمة الآيات من عظمة مُنزِلها

أُضيفَتِ الآياتُ في ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ إلى نون العظمة؛ لأجل استحضارِ قدْرِ الآياتِ بعظمة مَن جاءَت منه، فهي آياتُ المَولى ﷻ الخالقِ المُنعِم والقيّوم المُدبِّرِ ومالكِ يوم الدّين، فمَن راعى عظمةَ الإله نَزّلَ تلك الآيات مَنزِلتَها مِنَ الاعتناء والتَّأمُّل والاهتداء والاتِّباع[2].

دلالة الفاء في ﴿فَنَسِيتَهَا﴾:

تَرَتُّبُ الإعراض عن مجيء الآيات

آثرَ التّعبيرَ بالفاء لأنّها عَطَفَت جملةَ ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ على جملة ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾، وتدُلُّ الفاءُ على التّعقيب، وهو حصولُ إهمالِ الآياتِ بمُجرَّدِ وصولِها إلى هذا المُعرِض، كما تدُلُّ على التَّرتُّب[3]، فالفاءُ إذن دالّةٌ على هذا التَّراتب الّذي يُبْنَى عليه المَوقِفُ نفسُهُ؛ وهو إهمالُ المُعرِض يومَ القيامة ونسيانُه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 332.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 363.
(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 64، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 224.

بلاغة التّعبير بالنّسيان عن الإعراض:

ترتُّبُ النّسيان عنِ الإعراض

عبّر بالنّسيان في قوله تعالى: ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ دونَ غيرِه كالإعراض؛ لأنّ النّسيانَ يُطلَقُ على معنيين: أحدهما التّرك ولو كان عمدًا كما هنا في هذه الآية، وثانيهما: ضدّ الذّكر، والمرادُ هنا التّركُ النّاتجُ عنِ الإعراض؛ لذلك جاءَ التّعبيرُ عنِ المُعرِض عنِ الآيات بالنّسيان؛ ليُشيرَ إلى نتيجةِ الإعراضِ ولازمِه، فمَن أعرَضَ عن شيءٍ أهملَهُ، ومَن أهمَلَ شيئًا نسيَه وتَرَكَهُ، فوَضَعَتِ الآيةُ المُسبَّبَ مَوضِعَ السَّبب، وهو هنا النّسيانُ بدلَ الإعراض[1]؛ والمعنى: فعاملْناك بإعراضِكَ مُعاملةَ المَنسيّ الّذي لا يبصرُهُ صاحبُه.

دلالة بناء الفعل ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ للفاعل:

نسي الآيات عمدًا وإهمالًا وتهاونًا

جاء الفعلُ ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ مبنيًّا للفاعل؛ للدّلالة على أنّ النّسيانَ بمعنى التّركِ، وقَعَ منه بإرادته واختياره، وليس بدافعٍ خارجيٍّ كأن يُكرَهَ عليه، فعند ذلك يكون التّعبيرُ بالبناء للمَفعول؛ لكن لمّا كان النّسيانُ ناتجًا عن إعراضِه وإهمالِه بقصدٍ بُنيَ للفاعل.

بلاغة الاحتباك في الآية:

التّحفيزُ للكشف عنِ العلاقة بين العمى والنّسيان

المُتأمِّلُ في بلاغة القرآن يجدُ أنّ في الآية احتباكًا تعدَّدَت صورُهُ؛ إذ حُذِفَت جوانبُ في هذه المحاورة؛ فذكرَت حشرَ المُعرِض أعمى، ولم تَذكُرِ النّسيان، وذكرَتِ المَوقِفَ مِنَ الآيات وهو النّسيان، ولم تَذكُرِ العمى، وتمامُ الصّورة هي كالآتي: نحشرُكَ أيّها المُعرِض أعمى وننساك؛ لأنّك نسيتَ آياتِنا إذ جاءَتكَ وعَميتَ عنها[2]؛ فكذلك اليوم تُنسَى وتُحشَرُ أعمى.

ولهذا الأسلوبِ أثرُه البالغُ في الرّبط بين العمى والنّسيان، فالمُعرِضُ عَميَ عنِ النّور في الآيات، فأهملَها فنَسيَها وتَرَكَها، فكان

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 332.

جزاؤُهُ العَمى مع شدّة الحاجةِ إلى النّور يومَ القيامة؛ لأنّه عَميَ عمّا ينبغي أن يَهتدي به، فتَرَكَ الآياتِ.

دلالة الإضمار في قوله: ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾:

بلاغة الإيجاز، وإشارةٌ إلى زوال دار العمل

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بالإضمار عنِ الآيات في قوله: ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾، ولم يأتِ مُظهِرًا بأن يقول: (فنسيتَ الآياتِ) لسبق ذكرِها في قوله: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ فدلّت عليها، فلا داعيَ لإعادتها مراعاةً لبلاغة الإيجاز.

ويمكن أن يُقالَ: لمّا كان المَقامُ هنا مَقامَ مُحاسبةٍ ومُعاقَبةٍ على إعراضه عنِ الآيات في الدّنيا، أتى بالضّمير؛ للإشارة إلى أنّ العملَ بها انتهى زمنُهُ، ولا يوجدُ له محلٌّ؛ فناسبَ الإضمارَ الّذي يدُلُّ على أنّ الشّيءَ صار أثرًا بعد عين.

دلالة الواو في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تقرير الجواب عن سؤال (لِمَ حشرتَني أعمى)؟

آثر القرآنُ التّعبيرَ بالواو دون الفاء - مع أنّ المعنى في الآية مُتَرتِّبٌ على ما سبقها - لأنّها عطفَت جملةَ ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ على الجملة السّابقة ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ﴾ عطفَ تقرير، وهي أقربُ إلى إعادة عبارة السّؤال، فكأنّ الآيةَ تقول: أنت نسيتَ الآيات، فعميتَ عنها، فحشرناك أعمى، ومَن نَسي آياتِنا نسيناه[1].

دلالة التّعبير بالكاف في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الجمع بين نسيان المُعرِض في الدّنيا ونسيانه في الآخرة

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالكاف في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾؛ لدلالتها على التّشبيه، وهو المعنى الظّاهر لها؛ أي: مثلَ نسيانك وتركِكَ الآياتِ اليومَ تُنسى وتُترك[2]، وقد تُحمل أيضًا على معنى التّعليل، وهو من معاني الكاف، فتكون الآيةُ: ولأجل ذلك النّسيان ننساك اليوم[3].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 181.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 586.

بلاغة التّشبيه في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

جزاءً وفاقًا

جاء التّشبيهُ بالكاف في هذه الآية بديعًا؛ حيثُ تَطابقَ المشبَّهُ به - وهو تركُهُم للآيات - مع المشبَّه - وهو تركُ اللّه لهم هملًا، فكما تَركوا الآياتِ تُركوا[1]، فكان جزاءً وفاقًا[2]، كما كان نتيجةً منطقيّةً لمَوقفٍ غيرِ مَسؤولٍ، ممّا أكسبَ التّشبيهَ صورةَ النّتيجةِ وصورةَ الجوابِ المُفحِم، ويكون المعنى: تُترَكُ على ما أنت عليه بالعمى والشّقاء بالنّار، فتكُونُ كالشّيء الّذي لا يُبصرُهُ أحدٌ ولا يَلتفِتُ إليه[3].

دلالة التّعبير باسم الإشارة:

فظاعة نسيان الآيات

جاءَ التّعبيرُ بالإشارة للبعيد في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ لنسيان الآيات؛ للدّلالة على فظاعة ذلكم النّسيان وقُبْحِه، فصُوِّرَ في صورة المُبْعَد لا القريب، وهو ما يُظهِرُ سوءَ فِعل المُعرِض؛ إذ أهملَ ما يستحِقُّ الاعتناءَ به والاهتداءَ[4].

دلالة (أل) في ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، وسرُّ التّعبير به:

التّحذير من هول اليوم المَعهود

جاء لفظ "اليوم" في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ﴾ مُعَرَّفًا بـ(أل)، وهي (أل) العَهْد، لِما ورد قبلها مِن ذكر يوم القيامة؛ فالمقصودُ باليوم إذًا هو يومُ القيامة[5]، والتّعبيرُ عنه باليوم يشير إلى أنّه الحقيقُ بالاعتناء والاهتمام، فما سبق في الدّنيا مِن مَتاعٍ أو عُسرٍ فهو مُنقَضٍ، فإذا حَلّ اليومُ فما أدراك ما اليوم؟! كأنّه هو الأصلُ وغيرُهُ مُقدِّمةٌ له.

نكتة تقديم الظّرف ﴿ٱلْيَوْمَ﴾:

التّرقّب لِما سيحدث في ذلك اليوم

جاءت كلمة: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ مُقدَّمةً في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 332.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/ 55.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 837.

والنّكتةُ في ذلك تشوّفُ السّامعِ وترقُّبُه لِما يَحدثُ فيه، فيذهب به كلَّ مَذهَبٍ[1]، فالّذي ينسى آياتِ ربِّه ويُهملُها ما جزاؤه اليوم؟ فيأتي ذكرُ الجزاء بعدها، وقد أخذَتِ النّفوسُ أُهبَتَها.

نكتة بناء الفعل ﴿تُنسَىٰ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

الإهمال للمُعرِض عن آيات الله

بُنِي فعلُ النّسيان في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُهُ، مع أنّه ظاهرٌ في السّياق مرجعه[2]؛ للدّلالة على التّهوين والإهمال للمُعرِض عنِ الآيات، ذلك أنّ مَن تَرَكَ الآياتِ حَقيقٌ بالإهمال، فليسَتِ العِبرةُ بمَعرفة الفاعل، فالكلُّ يهملُهُ[3].

كما يُفهَمُ مِن بناء الفعل ﴿تُنسَىٰ﴾ لِما لم يسمَّ فاعلُه، التَّأدُّبُ مع الله تعالى في عدم نسبة النّسيان إليه سبحانه[4].

بلاغة المَجاز في التّعبير بالنّسيان:

إثبات معنى الحرمان والتّرك في النّسيان

ذكرُ النّسيان في الآية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ على أسلوب المَجاز المُرسَل؛ بذكر الشّيءِ وقصد سببِه[5]؛ أي: إنّ النّسيانَ مُسبَّبٌ عنِ الحرمان مِنَ الرّحمة والكرامة، وأنّ التَّقابُلَ بين نوعي النّسيانِ كان على سبيل المُشاكَلة[6].

دلالة الواو في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾:

عطف التّذييل لِما سَبَق مِن حوار

عُطفَتِ الجملةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ على الآية السّابقة ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ بواو العطف[7]، وعملُ الواو هنا هو عطفُ "مَجموعِ كلام على مَجموع كلامٍ آخرَ لا على بعض الكلام المَعطوف عليه"[8]، فجملةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ تذييلٌ للقصّة والحوار السّابق، وتقريرٌ لمَضمونها[9].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 161، و: 8/ 134.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 1 و18/ 125.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 231.
(5) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/ 86.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 80، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 225.
(7) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 6/ 174.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 333.
(9) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.

بلاغة التّشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾:

تشبيه جزاءٍ عامٍّ بجزاءٍ خاصٍّ

جاءَ التّشبيهُ في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ بالكاف، وهي بمعنى مِثل[1]، وهو تشبيهٌ يبيِّنُ جزاءَ المُعرِض الّذي حُشِرَ أعمى، ويُبيِّنُ جزاءَ كلِّ مُسرِفٍ غيرِ مُؤمِنٍ بالآيات، تشبيهَ جزاء عامّ بجزاء خاصٍّ[2]، وتكمن بلاغةُ هذا التّشبيه في بيان التّوافُقِ بين الجزاءِ والجِناية[3]، فكان الجزاءُ مِن جنس العمل[4].

دلالة التّعبير باسم الإشارة:

هَـولُ المَـوقِـفِ يجعلُهُ كالبعيد

دلَّ التّعبيرُ باسم الإشارة الّذي يدُلُّ على البعد في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ على شدّة الجزاء وهَولِه تشبيهًا للفظيع بالبعيد[5]، وحتّى يتِمَّ استحضارُ درجةِ ذلك الجزاء.

سرُّ تكرار قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الأداةُ واحـدةٌ والمعاني متنوِّعةٌ بديعةٌ

النّاظِرُ في هاتين الآيتين يجدُ تَكرار قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وهذا لا يعدُّ تَكرارًا طالما أنّه يحمِلُ غرضًا مُستقلًّا، ففي المَوضِع الأوّل: المشبَّهُ فعلُهم، وهو عماهم عنِ الآيات، والمشبَّه به: حشرهم أعمى، وفي المَوضِع الثّاني: المشبّهُ فعلُ الحقِّ، وهو تركُهُ إيّاهُم على عَماهم، والمشبَّهُ به: تركُهُم آياتِ الله، وفي المَوضِع الثّالث: المشبّهُ به: الجزاءُ الخاصُّ، والمشبّهُ: الجزاءُ العامُّ[6].

دلالة التّعبير بـ ﴿نَجۡزِي﴾:

كفايـة الـجـزاء ومـنـاسـبـتـه لِلجُرم

آثرَ التّعبيرَ بالجزاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ لِما تحمِلُهُ من دلالات؛ فأصلُ معناها يدورُ حولَ الكِفايةِ[7] والمُكافأة[8]، ولهذين

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 181.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 48.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 324.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.
(6) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 10/ 267.
(7) الرّاغب، المفردات: (جزاء).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي)، والزّبيديّ، تاج العروس: (جزي).

المعنيين دلالتهما البديعة؛ حيثُ زادَت لمعنى الجزاء مكافأتَها لِلجُرم وكِفايتَها في العقوبة، فهي عقوبةٌ تامّةٌ، وهي عقوبةٌ مُناسِبةٌ في مقابلة الإسراف والكفر.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نَجْزِى﴾:

دلّ التّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿نَجْزِى﴾ على تَجَدُّد الجزاء بتجدُّد الجُرم؛ فكلُّ مَن أسرفَ وكفرَ فهذا جزاؤه.

نكتة إسناد الجزاء إلى ضمير العظمة:

الـجـزاءُ مِـنَ العظيم عظيمٌ

أُسنِد الجزاءُ في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ إلى نون العظمة، ونكتةُ ذلك هي ما تَحمِلُهُ نونُ العظمة مِنَ المَهابة[1]، فتعلو درجةُ الجزاءِ باعتبار المُجازي، والمُجازي هنا هو اللّهُ بما له من صفات العظمة والجَبروت، وبذلك يكون الجزاءُ عظيمًا؛ لأنّه صادرٌ عمَّن له صفاتُ العظمة، وفي هذا تهويلٌ لذلك الجزاء.

بلاغة الالتفات في الضّمائر من ﴿تُنسَىٰ﴾ إلى ﴿نَجْزِى﴾:

التَّأدُّبُ مع الله تعالى في نسبة الأفعال إليه

عدلَتِ الآيةُ الكريمةُ إلى التَّكلُّم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ بعد المُخاطَبة في ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، وتكمنُ بلاغةُ هذا العدول في التَّأدُّب عن نسبة النّسيان إلى ربّ العالَمين، فصارَ التّركيزُ على المَنسيِّ المُهمَلِ، بينما حَسُنَت نسبةُ الجزاء إلى المولى تعالى باعتباره في مُقابِل العمل ومُناسِبًا له.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾:

عـمـوم الـجـزاء لكلِّ مَن أسرفَ، ولم يُؤمِنْ بآيات ربِّه

آثرَ التّعبيرَ باسم الموصول ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾؛ لأنّه يدُلُّ على العموم، فهو غيرُ مُحدَّدٍ في شخص مُعيّن؛ وإنّما يُحدَّدُ بالصّلة الّتي بعدَه؛ أي: ﴿أَسْرَفَ﴾؛ للدّلالة على أنّ الإسرافَ سببٌ لذلك الجزاء، وعموميَّة ﴿مَنْ﴾ مَكَّنَت مِن تحويل الآية إلى قاعدةٍ، مفادُها: كلُّ مَن أسرفَ، ولم يُؤمِنْ بالآيات، فهذا جزاؤُهُ[2].

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 16/ 440.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (منن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 95، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 529.

دلالة التّعبير باسم الموصول وصلته:

صِلَة الموصول تُؤذِنُ بالتّعليل

ذكرَتِ الآيةُ ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ الموصولَ ﴿مَنْ﴾ وصِلَتَه ﴿أَسْرَفَ﴾، والغرضُ من ذلك هو الإشارةُ إلى عِلّة الجزاء[1]، فصلَةُ الموصول تُؤذِنُ بالتّعليل[2]، وكأنّ الآيةَ - باستعمال الموصولِ وصلَتِه - تَذكرُ العلّةَ مِنَ الجزاء، إضافةً إلى الإخبار بثبوت هذا الجزاءِ لهم.

نكتة التّعبير بـ ﴿أَسْرَفَ﴾ مادّةً وصيغةً:

المُعرِضُ عنِ الآيات مُتجذِّرٌ في تجاوز الحدود

عَبَّرتِ الآيةُ ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ عن علّة الجزاء بالإسراف، وللتّعبير بالإسراف نكتٌ عديدةٌ؛ سواء في مادّتها أو صيغتها: فأمّا عن مادّتها فالإسرافُ هو تجاوزُ الحدِّ في المعصية أيًّا كان نوعها؛ لوجود حدودٍ ينبغي مُراعاتُها، لِمَن أرادَ لنفسِه السّلامةَ والفلاحَ، وتجاوزُ تلك الحدودِ هو تجاوزٌ لإرادة صاحب الحدود، وهو الله تعالى، لذلك استحَقَّ المُسرِفُ العقوبةَ[3].

وأمّا عن صيغتها فقد جاءَتِ المُفردةُ ﴿أَسْرَفَ﴾ بصيغة الماضي لِتدُلَّ على أنّ الإسرافَ راسِخٌ في المُعرِض عنِ الآيات، مُقارَنةً بعَدَم الإيمانِ الواردِ بصيغة المضارع، فصارَ المُسرِفُ هو المُتجذِّرُ في تجاوز حدودِه.

غرض حذف مُتعلّق الإسراف:

الإسراف مذمومٌ في كلِّ أحواله

حُذِفَ مُتعلَّقُ الإسراف في الآية: ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾، والغرضُ من ذلك هو التّركيزُ على الفعل في حدِّ ذاتِه[4]، دونَ نظرٍ إلى ما تَعَلَّقَ به، فالإسرافُ هو المَذمومُ مهما كان فاعلُهُ، وهو ما يُظهِرُ فداحةَ الإسرافِ في أصله، وأنّه يؤدّي إلى المَهالِك.

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 129، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4807.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 452، 24/ 243، 27/ 117، 24/ 188.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.
(4) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 156، وأبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 341.

السِّرُّ وراء التّعبير بـ ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾:

مَـن أسـرف على نفسه في الدّنيا حُشِرَ أعمى يوم القيامة

جاء الفعلُ ﴿أَسْرَفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ دون اسم الفاعل المجموع (المُسرِفين)؛ لدلالة الفعل على زمن الحدث، وهو هنا الزّمنُ الماضي المُناسِبُ لحكاية حال الكافر في الدّنيا، فقد أشرك، وكفرَ، ولم يُؤمِنْ بآيات ربِّه، فكان جزاؤُهُ يوم القيامة كما أخبر عنه سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: 125 - 127].

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ﴾:

الـعـطـف مع البيان

جاء وصفُ ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ﴾ في الآية ﴿أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ﴾ معطوفًا على ﴿أَسْرَفَ﴾ بحرف الواو، والعطفُ بالواو هنا هو ضَمُّ شرطٍ لشرطٍ لإثبات الجزاء، فيُفهَمُ منه أنّ الإسرافَ قرينٌ لعَدَم الإيمانِ، وأنّ كليهما استدعى هذا الجزاءَ المُناسِبَ[1].

دلالة النّفي في ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ﴾:

الإعـــراضُ عـنِ الآيـــات وتـــركُ الإيمان بها

استعملَتِ الآيةُ أسلوبَ النّفي بأداة (لم) في قوله: ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ﴾، بدلَ أسلوبِ الإثباتِ؛ أي: كَذَّبَ بالآيات؛ لأنّه يدُلُّ على عَدَم حدوثِ أدنى درجةٍ مِنَ الإيمان بالآيات، كما يشيرُ إلى معنى تركِ الإيمانِ بها، وهو إحالةٌ إلى معنى الإعراض، ومعنى التّركِ المَقصودِ في نسيان الآيات[2].

فالمَوقِفُ مِنَ الآيات هنا لم يكُنِ التّكذيبَ، بل كان الإهمالَ والإعراضَ وعَدَمَ الإيمان.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9442.
(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 105، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 442.

نكتة التّعبير بالمضارع المنفيّ ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۡ﴾:

جاءَ الفعلُ ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۡ﴾ بصيغة المُضارعة منفيًّا؛ للإشارة إلى تَكَرُّر عَدَمِ إيمانِه، رغم تَجَدُّدِ دعوتِه وتبيينِ الحقِّ له، - وهو المذكور في إتيان الآيات - ، ولكنَّ المُعرِضَ عنِ الآيات - لإسرافِه على نفسِه - رفضَ الإيمانَ بالآيات، واستمَرَّ في غيّه وعَماه.

تَكَرُّرُ عَدَمِ إيمانِ المُسرِفِ رغم تجدُّدِ دعوتِه إلى الحقِّ

معنى الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾:

دلَّتِ الباءُ في قوله: ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۡ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦٓ﴾ على التّعدية؛ إشارةً إلى أنّه جَحَدَ الآياتِ، ولم يُؤمِنْ بها، ممّا يُظهِرُ جُرمَه؛ إذِ الأصلُ في الآيات أنّها أدلّةٌ وبراهينُ يُسلِّمُ بها مَن يصغي إليها، لكنّ هذا المُسرِفَ لم يَستجِبْ لدلالتها، ولم يُؤمِنْ بها[1].

تعلُّقُ عدم الإيمان بالآيات وربطه بها

دلالة لفظ الرّبوبيّة وإضافته إلى ضمير المُسرِف:

أُضيفَتِ الآياتُ في قوله: ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۡ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦٓ﴾ إلى لفظ الرّبوبيّة، مع إضافتِه لفظَ الرّبوبيّةِ إلى المُسرِف بضمير الهاء؛ للدّلالة على أنّ المُسرِفَ قد تجاوزَ كلَّ الحدود في إسرافه، فإنّ حقَّ الرَّبِّ أن نُؤمِنَ بآياتِه، ولكنّ المُسرِفَ تجاوزَ ذلك فلم يُؤمِنْ بما حقّه الإيمانُ.

الرّبُّ أحقُّ بالخضوع له والإيمان به

نكتة العدول من قوله ﴿ءَايَتُنَا﴾ إلى ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾:

التفتَ الخطابُ مِنَ المُتكلِّم بنون العظمة في ﴿أَتَتۡكَ ءَايَتُنَا﴾ إلى المُفرد الغائبِ ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۡ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦٓ﴾، مُركِّزًا على اختصاص الآيات بربِّ المُسرِف؛ لإظهار قبحِ مَوقفِه، فالآياتُ مِن ربِّه لا مِن ربٍّ آخرَ حتّى يُهمِلَ ذلك، فلمّا جاءَته آياتُ ربِّه قابلَها بالإعراض، وقابلَ ربَّهُ بالجفاء مُخالِفًا بذلك حقوقَ الرّبوبيّةِ الّتي تُوجِبُ عليه الخضوعَ والقُبولَ بآيات ربِّه.

آياتُ الرّبِّ أدعى إلى الإقبال عليها

(1) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 31، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 6.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ﴾:

أبشعُ صور الإسراف عَدَمُ الإيمان

عطفَتِ الواو فِعلَ ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ﴾ على ﴿أَسْرَفَ﴾ في قوله: ﴿أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ﴾ في مَعرِض ذِكر الجزاء؛ للدّلالة على قرن العَملَين على أنّهما سببا الجزاء بالعذاب، ولأنّ في العطف معنى التّفسير؛ لأنّه فسَّرَ الإسرافَ بعَدَم الإيمان بآيات اللّه[1]، وهذا ظاهرٌ في المُسرِف؛ لأنّه قد تجاوزَ حدَّهُ إلى درجةٍ أنّه أعرضَ عن آيات ربِّه، وأهملَ خطابَهُ.

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾:

عَطفُ العذابِ الأخرويِّ على العذاب الدّنيويِّ تَشديدًا وتَنكيلًا

دلَّ العطفُ بالواو في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ على الجملة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ على وجود وعيدٍ سابقٍ لهم بالعذاب في الدّنيا؛ فهو من باب عطفِ جزاءِ الآخرة على الجزاءِ بالعمى وضنك المَعيشة، في تراتُبٍ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، ومِنَ الأهون إلى الأشدّ، ومِنَ المُؤقَّت إلى الأبقى. "فجاء هذا وعيدًا في الآخرة بعد وعيد"[2]، على نسق قوله ﷻ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: 17]

دلالة اللّام في ﴿وَلَعَذَابُ﴾:

التّرهيبُ من هول عذاب الآخرة

اللّامُ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ هي لامُ القسم، ومعناها: (ولَتَرْكُنا إيّاهُ في العمى أشدّ وأبقى من ضنك المعيشة)، وهذا المعنى فيه ترهيبٌ ووعيدٌ للمُعرِض؛ لذلك جاءَت لامُ القسم لِتزيدَ مِن هول عذاب الآخرة في تَرَقٍّ من عذاب الدّنيا إلى عذاب الآخرة، فمَن يَسمَعُ بالجزاء الأوّل (ضنك المعيشة والحشر أعمى) سيفزَعُ، فإذا أُضيفَ القسمُ إلى ذكر شدّة عذاب الآخرة زادَ المُنْصِتُ للآيات هَلَعًا، فالقسمُ إذًا في حدِّ ذاتِه يزيدُ المُسرِفَ عذابًا، فكيف بحلول العذاب![3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 112.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 69.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364، وأبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 161.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

استحضار صورة الآخرة المعهودةِ

جاءَ ذكرُ الآخرةِ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مُعَرَّفةً بـ(أل)؛ للدّلالة على العهد؛ لأنّه إذا ذُكِرَتِ الآخرةُ في آيات القرآن انصرفَت إلى اليوم الآخر، على عادة القرآن الكريم[1]، ويكون الغرضُ مِن ذِكر (أل) العَهديّة هو استِحضارَ المَقصودِ؛ للانتقال مُباشَرةً إلى ما يَحصُلُ مِن شدّة العذاب ودوامه، مع أنّ الحشرَ يومَ القيامة هو أوّلُ الآخرة، فكيف بالمُسرِفِ بما يأتي بعدَهُ مِن أحوالٍ وأهوالٍ!

دلالة إضافة العذاب إلى الآخرة:

لا شيءَ للمُسرِفِ في الآخـــرة إلّا العذابُ

أضافَتِ الآيةُ العذابَ إلى الآخرة في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لِتحصَرَ المُسرفينَ في العذاب، فالمُسرِفُ في جزاءٍ تلو الجزاء، وشدّةٍ تلو الشّدّة، كأنّه لا شيءَ له إلّا العذابُ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السّجدة: 20]؛ فلا ينالُ مِنَ الآخرة إلّا العذابَ الأشدّ والأبقى[2].

المَوقِعُ الإعرابيُّ لقوله ﴿أَشَدُّ﴾:

عـــذابُ الآخـــرة أشـدُّ مـن عـذاب الدّنيا

جاءَت كلمةُ ﴿أَشَدُّ﴾ في ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ خبرًا للمبتدأ "عذابُ الآخرة"، والخبرُ كما يحملُ دلالةَ الإخبار بشدّة العذاب، فإنّه يتجاوزُ ذلك إلى التّذكير بما بين المَراتبِ مِنَ التّفاوت، مع التّحذير والتّرهيب[3].

نكتة التّعبير بـ ﴿أَشَدُّ﴾ دون شديد:

مُـقـارَنـةُ عـذابِ الآخرة بما سبقَه مِن شدائدَ

وُصِفَ عذابُ الآخرة في الآية: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ بالأشدّ بدلَ الشّديد؛ وذلك لِمُقارنةِ عذابِ الآخرةِ بما سبقَهُ مِنَ الشّدائد[4]، وللمُقارَنة أثرُها البالِغُ في التَّرقّي من شدّةٍ إلى أشدّ منها إلى النّهاية في الشّدّةِ، إنّه عذابُ الآخرة الأشدُّ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 397.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 333.
(3) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 56، وأبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 80.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 394.
(5) البغويّ، معالم السّنن: 5/ 302.

بلاغة وصف العذاب بقوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

الآخرةُ دارُ البقاء

وُصِفَ العذابُ بقوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ لأنّه غيرُ مُنقطِعٍ؛ لأنّ الدّنيا دارُ فناءٍ وانقطاعٍ، أمّا الآخرةُ فهي دارُ البقاء؛ لذلك كان التّعبيرُ بقوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على دوامِه واستمرارِه.

نكتة حذف مُتعلَّق ﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

بلوغُ العذاب مُنتهاهُ شدّةً ودوامًا

حُذِفَ مُتعلَّقُ كلمتي ﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، ونكتةُ ذلك هي الانتقالُ مِنَ المُقارَنة بين عذابٍ وعذابٍ إلى إعلان عَدَم وجودِ ما يُقارَنُ به، المُقارَنةُ، وفي ذلك إعلامٌ ببلوغ عذاب الآخرة المُنتهى ألمًا وفظاعةً، ودوامًا لا انقضاءَ له [1].

دلالة ختام الآية بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

تشديدُ عذاب المُسرِفِ بتأكيد ذكرِه وبيانِهِ

خُتِمَتِ الآيةُ بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ لأنّه لمّا تَوعَّدَ المُعرِضَ عن ذِكرِه فيما سبق بعقوبتين: المعيشة الضّنك في الدّنيا، وحشره أعمى في الآخرة، خَتَمَ هذا الوعيدَ بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ من باب التّأكيد والبيان؛ لأنّها مُؤكِّدةٌ لمعنى قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124] ومُبيِّنٌ لِما قَصَدَ به، أو لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [2].

سرُّ اختلاف وصف العذاب بين الشّدّةِ والمَشقَّةِ والكِبرِ:

اختلفت أوصافُ العذاب باختلاف السّياق

النّاظِرُ في آيات القرآن الكريم يجدُ أنّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وُصِفَ بعدَّة أوصافٍ؛ فوُصِفَ هنا بقوله: ﴿أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، وفي سورة الرّعد بقوله: ﴿أَشَقُّۖ﴾ [الرّعد: 34]، وفي سورة الزُّمر بقوله: ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ [الزّمر: 26]، وفي سورة فُصِّلت بقوله: ﴿أَخۡزَىٰۖ﴾ [فُصّلت: 16]، وكلُّ وصفٍ من هذه الأوصاف مُناسِبٌ للسّياق الّذي ورد فيه.

فمَوضِعُ سورةِ الرّعد وصَفَ عذابَ الآخرةِ فيه بأنّه أشقُّ؛ لأنّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 394، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 112.
(2) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 10/ 268.

الآيةَ بُدِئَت بقوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الرّعد: 34] جزاء للكافرين لصدّهم عن سبيل الله، وكان هذا الصّدُّ يُسبِّبُ مَشقّةً لِمَن يريدُ الطّريقَ المستقيمَ؛ فدلّ ذلك على أنّ عذابَهم في الحياة الدّنيا شاقٌّ، فناسبَهُ التّعبيرُ بوصف عذاب الآخرة بالأشقّ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرّعد: 34]، أمّا مَوضِعُ سورة طه الّذي معنا في هذه الصّفحة فيسبقُهُ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: 124]؛ فلمّا كانت شدّةُ الدّنيا تزولُ بالحشر ناسبَه قولُهُ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾، أمّا مَوضِعُ الزُّمر فيسبقُهُ قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزّمر: 25]؛ فلمّا كان التّكذيبُ من أكبر الكبائر، ودلَّ ذلك على أنّ عذابَ هؤلاء في الدّنيا كبيرٌ، ناسبَه قولُهُ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزّمر: 26]؛ أمّا مَوضِعُ فُصِّلت فكان حديثًا عن عذاب قوم عاد بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فُصّلت: 16]، فلمّا كان عذابُ هؤلاء في الدّنيا مُخزيًا ناسبَه قولُهُ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فُصّلت: 16].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّهو والنّسيان والغفلة:

النّاظِرُ في استعمالات هذه الألفاظ يجدُ بينها فروقًا، وإنْ تقاربَت في الدّلالة على ترك إتيانِ الفعلِ وعَدَمِ الانتباه له:

فالسّهو عَدَمُ التَّفطُّن للشّيء مع بقاء صورته أو معناه في الخيال بسبب اشتغالِ النّفسِ والتفاتِها إلى بعض مَهامّها.

والنّسيانُ عزوبُ الشّيء عنِ النّفس بعدَ حضورِهِ، ويكون بمعنى التّركِ، وهو ضدُّ الذّكرِ.

الغفلةُ عَدَمُ حضور الشّيء في البال، والنّسيانُ عزوبُهُ بعد حضورِهِ، والسّهو عَدَمُ التَّفطُّن له

أمّا الغَفلةُ فهي عَدَمُ حضورِ الشّيءِ في البال بالفعل، وعلى ذلك فالغَفلةُ أعمُّ مِنَ السّهو والنّسيان[1].

فالغَفلةُ قلّةُ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظِ[2]، والسّهو خطأٌ عن غَفلَةٍ[3]، فهو غَفلةٌ يَسيرةٌ[4]، يمكن أن يُتنَبّهَ منها بأدنى تنبيهٍ، وهو سكون[5]، والنّسيانُ تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ[6].

ويختلفُ النّسيانُ عنِ الغَفلةِ والسّهو باعتبار وجودِ مَذكورٍ مَحفوظٍ سلفًا، يتعلَّقُ الأمرُ بحفظِهِ، بينما تتعلَّقُ الغَفلةُ والسّهو بالانتباه والتَّيقُّظ، ويختلفُ السّهو عنِ الغَفلةِ في خِفّة السّهو وشدّة الغَفلة.

العذاب والعقاب:

العذابُ باعتبار طبيعة الشّدّةِ، والعقابُ باعتبار زمنِه وسببِه

يَجتمِعُ مفهومُ العذاب والعقاب في معنى النّكال والمَجازاة، وإنْ كانَ لكلٍّ منهما معنىً يميِّزُهُ؛ فمادّةُ (عذب) في اللّغة تُطلَقُ على الضّرب، وتُطلَقُ على كلِّ شدّةٍ ومعاناةٍ؛ بخلاف العقاب، فأصلُهُ من (عَقِبَ) الّذي يدُلُّ على تأخير الشّيءِ وإتيانه بعدَ غيرِهِ، والعقابُ من هذا الباب سُمّي بذلك؛ لأنّه يأتي عَقِبَ الذّنبِ، ومِن هنا يَفترِقُ العقابُ عنِ العذاب من ناحية أنّ العقابَ لا بدَّ وأن يسبقَهُ ذنبٌ.

أمّا العذابُ فهو وصفٌ للحالة البدنيّةِ والنّفسيّةِ سواءٌ سبقَهُ ذنبٌ أم لا، وآياتُ القرآنِ في هذا ظاهرةٌ في التّفريق بينهما، حيثُ يُوصَفُ العذابُ بالشّدّة والعموم؛ بخلاف العقاب، فقد يكون شديدًا، وقد يكون يسيرًا، لكن لابدَّ وأن يسبقَهُ ذنبٌ[7].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والعسكري، الفروق اللّغويّة: (نسا) و(سها) و(غفل).
(2) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(3) الرّاغب، المفردات: (سها).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، والزّبيديّ، تاج العروس: (سهو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سهو).
(6) الرّاغب، المفردات: (نسي).
(7) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 341.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»